قصة قصيرة

رائحة الظلال

لؤي حمزه عباس

● خارج اللغة تقع الذاكرة الكلية عالية في الأعماق.
الطاهر بن جلون

بين صرير الحديد المتواصل، ينفتح الباب، بغتة، يندسّ مصراعاه الحديديان في جوف جدار العربة. يتوغل الرجل: الآن، صوب الركن الآخر من القطار الصاعد.. تدفعه رغبة عارمة.

وحدها، رمال الليالي المعتمة، تتأمل وحشة العربات الأخيرة. عربات محملة بروائح مرصوصة في صناديق من خشب بال أو كارتون.. أكياس من الجنفاص المعبأ بالبريد.

يصعد القطار بمساءاته الموغلة في حزنها المديد، ورائحة الأجساد المتخمرة في أجواف عرباته المتلاحقة.. مثل غول كان، أو مثل دودة قتيل.

تمسح نظرات الرجل نثار الضوء المرتسم في خفوت على جدران العربة لتستقر أخيراً في وسطها، تماماً، على مركز الظلال الباردة حيث استقامت كتلة جسد متصلبة تحت جدول من الأسى، مندسة في إزارها الصوفي بخطوطه الخضر المتقاطعة. كتلة واضحة. تمدّدت على قاعدة العربة الصدئة، متوسّدة سكون الظلال المحايدة للصناديق والأكياس.

يد الرجل تمتد راعشة عبر الفراغ، متسللة باتجاه كتلة الرأس المستديرة الصلبة. تزيح الإزار. ينبت قضيب حديد صدىء من كتلة الرأس المتهشمة، ثاقباً عفن الرائحة المنتشرة في عربة الشحن.

تتواثب رائحة المدن المنفرشة على الأرصفة، مثل شياه صغيرة، تقفز في بطء، راسمة أقواساً من الغربة المنحنية، ريثما يمر القطار ـ تمر الوجوه ـ تمر البقايا.. إذ تبحث عن نقطة هائمة في فراغ معتم، تنبثق الساعة مثل فكرة رهيبة، تدقّ مسامير قلقها النابت على جدران مجدبة.. في عربة المحرك، كانت النقطة. أو: عربات السياحة. عربات المنام. عربات المطعم. عربات الشحن..

لم تبق من خيوط النظرة الساحرة غير ملامح انطفاء تتكور مشوّهة سكون الوجه المحدق في فضاءات بعيدة. بخوف، يتحسّس الرجل رأسه، ثم يتأمل انفراج الشفتين الحجريتين:

ـ اهدأ.. قال.

لبث الرجل غائباً في صدى الكلمة الصارمة، مثل قرقعة دواليب قديمة.

ـ لقد سئمت الرائحة، والظلام.. ألم يأت الصباح بعد؟

ـ لم يأت بعد.

كرر الرجل بصوت خافت.

ـ تحدث إذن.

قال بلهفة ذائبة:

ـ... مثل حارس أمين، كان يقف متّشحاً بصمته الطويل، نابتاً من إحدى الساحات المزروعة، كأنه شجرة سدر أو كالبتوس تفرعت على مهل، ودونما اهتمام، بدأت تأخذ شكلاً بشرياً منتظماً لتستحيل ذات يوم إلى تمثال فارع تضمّخه رائحة تراب مرشوش.. في ساعات القيظ الصيفي يزرع غابة من ظلال فارهة ليخبىء أجساد الصغار، بعيداً عن سياط الشمس، تتكور الأجساد الصغيرة، متداخلة، تمتد الأصابع الطريّة، خجلة، لتبحث في سكون المدينة عن ظلال جديدة، عميقاً، تندسّ في ليونة الأجساد اللدنة، فتفزّ عصافير الصغار المنكمشة. متوترة. في ذهول مفاجىء.

(يا لسماء الجسد!)

ويا لرائحة الظلال الفاتنة، إذ تحرك شقاوات الصغار، فيصعدون متشبثين بصلابة الأقدام الراسخة على مرمر القاعدة الصقيل.

يجلسون ساعات، يدغدغ أسماعهم هديل الفواخت اللائذة بطراوة الظلال:

«يا كوكتي.. وين أختي؟.. بالحلّة.. إشتاكل؟.. باجلّة»

وقد كانت لارتفاع الجسد المنتصب أجراس من الرغبة، تقرع نداءاتها الخفيّة، ليحّلق الصغار، متشبثين بأصابع الصخر المفلطحة الصلبة. إنهم: يصعدون، يصعدون، يصعد...

كان صبي يتحدث بصوت حالم:

ـ أعرف بأنني لو صعدت إلى الرأس، لرأيت بيتنا، ولأمسكت خمس حمامات.

لكن التمثال ـ الآن ـ منطرح، وحيد، دونما غابة من ظلال أو عصافير.

ينبت من رأسه العالي قضيب صدىء، يطعن في صمت وعناد أسرار الصناديق والأكياس، ويؤجج في سكون الساحة البعيدة أنفاساً موحشة توقدها قاعدة تمثال غائب...

مع كل صباح، كان الصغار ينتظرون هداياهم الغريبة، تماثيل من طين مفخور، ذي رائحة زكية، كانوا يجدونها وقد نقشت عليها أسماؤهم، متكئة على أبواب منازلهم: ما إن يُفتح أحدُ الأبواب حتى تسقط ـ دونما ضرر ـ مصطدمة بالأرض، كأنها نزلت تواً من سماء التماثيل، معلنة وصولها في رنة أثيرة. وحدهن الأمهات يعرفن أن التمثال يترك ليلاً قاعدته المرمرية ليوزّع تماثيله الصغيرة على الأبواب...

ـ أمتعب أنت؟

تساءل التمثال.

ـ منذ البارحة.

أجاب الرجل.

ـ هل كان القصف شديداً، حدثني.. أرجوك!

عادت غيوم البارود الزرقاء إلى رأس الرجل متسللة عبر نسيج من الأدعية المكتومة والأنفاس المؤجلة.. أنفاس الشوارع، والأنهار، والساحات النازفة تحت عناء تماثيلها المقصوفة في قسوة عارمة.

عربات منتصف الليل تتبادل أحزانها. شراشف بيضاء. وجوه. وجوه. تتشظى نحو زوايا العربات. مقتربة من شاشات نوافذها الزجاجية الباردة. الظلام يدب. سريعاً. يدب الظلام. تغلق العيون المتعبة أجفانها. تركض نحوها أجساد الظلمة والحديد المندفع. رائحة التراب. البارود. المحطات الغريبة الفارغة... في عربة الشحن. وحده. بين سكون الصناديق وأكياس الرسائل المسافرة. يتنفس. متوغلاً في صمته الحجري...

... كان الرجال يعلقون تماثيلهم الصغيرة على النوافذ، والأبواب المفتوحة، والشرفات، فتلتمع خرزات عيونها مع كل قذيفة تشق سكون المدينة.. لم يكن القصف شديداً ـ ذلك النهار ـ لكن القذائف أخذت تنتظم في دائرة مغلقة، مركزها رأس التمثال الشاخص..

وما إن حلَّ الظلام حتى كانت خرزات العيون الصغيرة تتقد بشعلة غريبة، هي مزيج من رغبة آسرة وخوف دفين.. ومع مرور اللحظات الثقيلة، بعد انطفاء بريق العيون، تناثر غبار ذو رائحة أليفة.. كرائحة طين مرشوش، على السطوح، والشرفات الخالية، والأبواب المفتوحة المنتظرة.

كان المشهد يبدو مثل خرافة، فقد نزل التمثال عن قاعدة المرمر المرتفعة ليخطو، في هدوء تام، خطوتين قصيرتين، عبر خلالها ساحته الصغيرة المعشبة، وتأمل، بالشظايا الدقيقة المتبقية من عينيه، ما يمكن أن يراه من المدينة، وقف طويلاً قبل أن ينهار، مثل جبل من الموج، على الشارع الخالي.

كانت أيدي الرجال الراجفة قد امتدت في صمت إلى التماثيل الصغيرة مطفأة العيون، وقد التمعت حروف الطين المنقوشة على أجسادها بأسماء الصغار الغائبين، وبقايا لمساتهم الطرية على السيقان الخشنة، والرقاب البارزة، والأعراف المنفلتة الصلبة.. لتنتظم، في حركة مستسلمة أخيرة، في عربة الشحن، مع تمثالها المتهشم الرأس.

البصرة (العراق)

صدر حديثاً

ديوان الحب العربي

تأليف

محمد سعيد اسبر

إن معظم شعر الحبّ في تراثنا العربي ما يزال دفيناً في بطون المؤلفات والدواوين، مشتّتاً، مجهول الموقع بالنسبة لقطاع واسع من القراء.

وهذا الكتاب يتناول أهم أشعار الحب التي نظمت من بداية العصر الجاهلي حتى نهاية مخضرمي العصرين الأموي والعباسي، من أبيات الشّنفري، حتى أشعار بشّار بن برد.

منشورات دار الآداب